



«رواية قاتل حمزة:

تبدأ رواية قاتل حمزة في الليل حيث يعم الظلام مكة قبل فتحها فتعيش سوادا يحولها إلى كتلة غامضة مليئة بالأحقاد يلوثها الشذوذ والعناد، ويستمر الليل حتى دخول وحشي في الإسلام، فتشرق الشمس وهو ذاهب إلى المدينة، وكأن الرواية دامت ليلة واحدة، ينغلق فيها الخطاب على شخصية مضطربة وزمن كله ظلام.

فتجد وحشيا حبيس سجنه الذي صنعه بيديه، لا يمارس حياته إلا في الليل، يلتقي حبيبته عيلة، يحدثها عن أحلامه الغامضة فتعلق: «إنه أسير أهواء قاتمة السواد... لشد ما يحزنني أمره.» (ص ٢١) وعندما يفقدها بعد إسلامها وقد نال حريته ثمن قتله حمزة، يصير عبدا مرتين للناس ولأهوائه، لا يرى في الدنيا إلا الظلام الذي يمارس عليها نوعا من الحصار ليل نهار، فتتحول حياته إلى اضطراب وخوف مستمرين، ويصبح كالتائه الضائع، لا يعرف الطريق، تقتله الوحدة، ويعيش ليلا لا ينجلي بصبح لا يأتي، فنسمعه ينشد أبيات امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه

وأردف أعجازا وناء بكلل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما إلا صباح منك بأمثل (ص ١٥٥).

ويتجاوز الظلام دلالة الزمن كليل، ليصير حال قلق واضطراب يعيشها وحشي، يختلط فيها الليل بالنهار: «سيان عندي الليل والنهار» (ص ٧٢)، ويدرك صاحبه سهيل ذلك فيعلق قائلاً: «أنت تعيش في عزلة من الظلام والحقد والأنانية... وهنا أنت تعاني من تعاسة قاسية برغم الحرية والمال، وبرغم المتعة التي تشتريها من المومسات وكؤوس الخمر التي تترعها كل مساء.» (ص ١١٢).

ثنائية الظلام والنور

في

قاتل حمزة

وعمالقة الشمال

وعمر يظهر في القدس

لنجيب الكيلاني

لا تظهر الثنائية بشكل مباشر ظاهر، بل تمر بمستويات دلالية سابقة لهذا المعنى، فهي داخل الخطاب مجرد إشارات زمنية صغرى: ليل ونهار، شروق وغروب، صباح ومساء، لكن الخطاب يمنحها دلالة أخرى تدل على الظلام والنور. وهذان الأخيران يولدان بدورهما دلالات جديدة نحاول الوصول إليها خلال قراءتنا هذه.

الشريف حبيلة - الجزائر

■ تبدأ رواية قاتل حمزة في الليل حيث يعم الظلام مكة قبل فتحها فتعيش سوادا يحولها إلى كتلة غامضة مليئة بالأحقاد، يلوثها الشذوذ والعناد، ويستمر الليل حتى دخول وحشي في الإسلام.



نجيب الكيلاني

طويلا مظلما يغص بالأحزان والآلام، والسواد يغطي الكون كله: «يا إلهي كل شيء ذبل واستوشح بالسواد، ولا أكاد أرى بصيصا من نور». (ص ٢٢١) وهكذا تعيش مكة كل أيامها ولياليها.

ونخلص إلى أن الليل في قاتل حمزة مرتبط بالإثم والرذيلة (الجنس، الخمر) خاصة العبودية التي ألقت بوحشي في نهر الضياع والحيرة والشك القاتل.

«رواية عمالقة الشمال»

تبدأ رواية عمالقة الشمال في الليل وتنتهي مع الصباح كما الحال في قاتل حمزة، ويستمر الليل بأسطا ظلامه على الأحداث حتى نهاية الرواية التي تنتهي مع الصباح: «وبقيت مستيقظا حتى الصباح» (ص ١٨٤)، وكأنها دامت ليلة واحدة، إلى جانب أن معظم أحداث الرواية لا تحدث إلا في الليل، وطغيان الإشارات الزمنية (مساء) على باقي الإشارات الأخرى، مما يؤدي بنا إلى القول أن الظلام يمارس كزمن أولا، قوة على الحدث، ويحتل مساحة واسعة من الخطاب، فينتقل من مستوى الدلالة الزمنية إلى دلالة أخرى نكتشفها في طبيعة ونوعية الحدث الذي يغطيها.

في هذا المستوى يرتبط النهار بالظلام المليء بالفجور، ويصير الظلام ليس مجرد وقت يأتي ثم ينجلي، بل حال يعانيتها وحشي، يصارعها ويبحث في خضمها عن مخرج، ورغم معرفته الطريق إلا أن عناده يطيل ليله ويباعد بينه وبين الفجر: «لقد طال ليلي ولا أرى للفجر بشائر». (ص ١٥٥).

يمتد الليل ممثلا بالحيرة والضياع ليشمل ماضيه ومستقبله الغامض فيعترف لوصال البغي: «حياتي السابقة ليس فيها نهار إلا الليل». (ص ١٩٧)، وبعد أن يفقد كل من حوله عيلة.. وصال.. مكة.. الطائف.. يجد نفسه محاصرا كما يتوهم بالإسلام. و تضيق الدنيا أمامه إذ النور يعم كامل الجزيرة، بينما يبقى هو رهينة الظلام، ظلام النفس، إلى أن تشرق عليه شمس الإسلام فيسلم ويسافر إلى المدينة وهو: «أكثر هدوءاً واطمئناناً» (ص ٢٥٧).

ولا يقتصر ذلك على وحشي وحده، فحتى سادة مكة كانوا يعيشون ظلاما، ويجترون الليالي في وضع النهار: «أما شيوخ مكة فقد باتوا الليل يفكرون». (ص ٢١٣)، ولم يسلم من ذلك سيدهم أبو سفيان قبل إسلامه، إذ يرى- وهو عائد من المدينة- الطريق



■ **تبدأ عمالقة الشمال في الليل ويستمر الليل باسقاطهم على الأحداث حتى نهاية الرواية التي تنتهي مع الصبح.**

■ **إذا كان الظلام في قاتل حمزة قد ارتبط بالإثم والقلق والحيرة خاصة العبودية، فإن الظلام في عمالقة الشمال مرتبط بالفتن والمكر والظلم والخداع والخيانة.**

وقال شيخي:

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم» (ص ٢٩). وهكذا انتقل إلى مستوى آخر هو التدافع بين زمن النور وزمن الظلام، وبعبارة أخرى بين الظلام والنور، هذا التدافع يعبر عنه الشيخ عبد الله: «انظروا إلى السماء نحن في آخر الشهر العربي، والظلام دامس، والنجوم تقاوم الظلمة، لكن لا تنسوا القمر سوف يسطع عما قريب واذكروا أن بعد الليل نهارا» (ص ١١٢). ويرى أحمد بللو الحل في الأمة المسلمة بكاملها، التي بإمكانها أن تغير وجه التاريخ وتعيد الحق إلى نصابه فيسود الصفاء العالم، وتختنق الثعابين في داخل أوكارها، ويتراجع الظلام، وينتهي ليل نيجيريا باكتمال وحدتها، وسماؤها صافية يغمرها الضياء. ولا يرتبط الظلام هنا بالحدث فقط، بل يغمر حتى الشخصيات، ونور نموذج لهذه الشخصية الحيرة التائهة في الظلام لا تعرف الطريق، تتقلب بين أحضان الفساد والخيانة، وحتى عثمان نفسه

فإذا كان الظلام في قاتل حمزة قد ارتبط بالإثم والقلق والحيرة خاصة العبودية، فإن الظلام هنا مرتبط بالفتن والمكر والظلم والخداع والخيانة وغيرها، إنه ليس مصبوغا بطبيعة نفس الشخصية المظلمة (وحشي في قاتل حمزة)، بل بالحدث الذي يتخذ من الليل ستارا لبسط سلطانه. فنور يستغل الظلام ليقنع عثمان بالذهاب إلى المدينة الجديدة حيث الرذيلة والفساد، ولا يسجن عثمان إلا في الظلام، بعد أن يشي به أقرب الناس إليه صديقه نور، ويكون الظلام دائما غطاء للفتن التي تحاك، فيقتل الزعيم أحمد بللو، وترتكب المجازر في حق المسلمين، ويتحول نهار الداعية عثمان

إلى سواد حالك: «ها أنت يا وطني الغالي تقع بين برائن الأعداء، وتغرق يا وطني في فتن سوداء كالليل الحالكة.. الإخوة يقتتلون، فيراق الدم البريء، من أجل أن، ينتعش اقتصاد الاستعمار، وضمن الاستثمار من أجل أن يركع عمالقة الشمال ساجدين تحت إرادة المستعمر، الحدث الكبير يهز وجداني ويشعل قلبي ويلطخ آمالي بالسواد» (ص ٧٨). بهذه العبارات يصف عثمان ليل نيجيريا، وآماله المظلمة، والبطل لا يقف موقفا سلبيًا تجاه هذا الظلام، ففي الحوار الذي جرى في مجلس الوزراء بقيادة أحمد بللو ندرك مستوى الوعي بذلك: «ما أكثر الجرائم التي تحاك في الظلام!!»

- قال أحمد بللو:

الظلام يصرع العصابات التي تعشش فيه. بل يسترهم ويحميهم. لست أدري ماذا يريدون؟



«رواية عمر يظهر في القدس:

تبدأ رواية عمر يظهر في القدس في وضع النهار، وتنتهي مع الفجر وما بين النهار والفجر يمتد الليل، وينتشر ظلامه على طول الرواية، تراه شخصية البطل طويلا رغم تعاقب النهار!

ففي الفصل الأول يخبر أمه منذ البداية عن حاله وحال جيله: «نحن جيل الضياع، والأحزان يا أمه أيام الذل مزرعة خصبة للآلام والأحزان، وسنوات الهوان الطويلة لم تتفجر عن فجر يبدد الظلام والوجوم» (ص ٧)، بهذه العبارات يضعنا الراوي في زمن يتسم بالسواد والظلام. هو زمن الراوي ذاته وجيله، ثم يخبرنا عن مصدر هذا الظلام عندما يتحدث عن حزيان ويصف أيامه بالسواد، فيكون حزيان النقطة التي بدأ منها ليل هذا الجيل، لكن عند ظهور عمر بن الخطاب نعرف أن الظلام قد بدأ مع هذا الجيل إنه جاء مع مجيئه بل: «ضارب في أعماق وجوده تغلفه الحيرة والشك والظلمة» (ص ٨٩)، فهو جيل مخدر تائه.

الظلام كما يراه البطل صنعه الإسرائيليون، آفة العصر، وحاملو ألوية الغدر والحقد والدمار. لكن الخليفة بعد نقاش طويل يضع يده على المصدر

يشعر بالظلام الذي يصيب نفسه وأحلامه بالسواد، فتتحول الغابة عنده إلى صحراء شاسعة من الشك والاضطراب والخطر، ويفدو الليل صعب المسالك، السير فيه خطير جدا، ويتحول الليل وظلامه إلى شبح يطارد الدعاة، فيصرعهم أو يحرمهم فرص الحياة، أو يطردهم من الوظائف.

إنه الفتنة التي تطول يدها كل شيء. لذلك نجد عثمان كلما سد الظلام طريقه يعود إلى شيخه لينير له الدرب، ويرشده إلى مصدر النور وينصحه بأن لا ينسى مهمته، ثم يذكره بيوسف عليه السلام الذي كان يدعو إلى الله داخل السجن، وحين يسأله عن الطريق يجيبه شيخه: «التوحيد هو طريق الحرية.. الله وحده هو حاكم هذا الكون، وهو المتصرف فيه قم وتوضأ... وتذكر ربك وسبح باسمه بكرة وعشيا» (ص ١٢٦). وحتى عندما تشدد

الحرب يذكره قائده بدوره الواجب القيام به من أجل أن يعم النور، وينسحب الظلام.

في المقابل نجد المبشر تومن، هذا الجندي في ثياب رجل الدين لا يضرب إلا في الظلام، إنه صورة الاستعمار والمستغلين الحاقدين، كما يراهم عثمان، يحاربون النور وينشرون الظلام، يريدون لنيجيريا أن تعيش حياتها ليلا أسود.

أما جاماكا فإنها كوحشي تبدأ رحلتها بالبحث عن النور انطلاقا من زمن الوثنية المظلم ثم إلى المسيحية، لكنها لا ترى بصيص ضياء، إلا في رحاب الإسلام، ودوما يكون الظلام غطاءا للرديلة والفساد ترتبط به، وتجده الوقت الأمثل للظهور بكل قوة: «لاجوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة» (ص ٢٤).

وهكذا يكون الليل والظلام في عمالقة الشمال زمنا ذا أبعاد عديدة، فبينما هو الإطار الذي تجري فيه الأحداث خاصة المتعلقة بالاغتيال والقتل والظلم يكتسح أيضا نفس الشخصيات، فيصبغها بلونه الأسود، ويحاول قتل النور المتيقظ فيها وغرس بذور الظلام لتعيش زمنا مظلما، ثم يكون ستارا للرديلة يدفع بها في كل الاتجاهات.



■ تبدأ رواية عمر يظهر في القدس في وضع النهار، وتنتهي مع الفجر وما بين النهار والفجر يمتد الليل، وينتشر ظلامه على طول الرواية، تراه شخصية البطل طويلا رغم تعاقب النهار!

الحقيقي لهذا الليل الطويل الممتد بلا نهاية في عالم المسلمين، ويخبر البطل: «لكنكم صانعو المأساة ولا شيء غير ذلك» (ص ١٧).

والسبب هو اختلال شيء كبير في هذا الزمن الذي وصفته أم البطل بزمن الشياطين، نتج عن تراجع المسلمين الذين أصبحوا عرضة لسخرية الأعداء، فتجد مخبرا إسرائيليا يحقق مع الخليفة، ثم يصف له حال المسلمين اليوم، بأنهم يعيشون على ذكريات الماضي

والبطولات القديمة يجترونها في ليالي الأحران الطويلة، وهكذا يختلط الليل بالنهار، فيصير اليوم كله ليلا، وتبسط الظلمة أجنحتها لتغلف القدس، بل العالم كله بسوادها: «العالم كله يرزح تحت كابوس رهيب من القلق والتمزق والحيرة حتى المنتصرون» (ص ٢٥٥).

وتمتد حدود الليل، لكن الأمل يبقى يراود المؤمنين بالنور الأبدي: «آه.. يولد الفجر من بين براثن الظلام، ويقلب المؤمن أفراح أبدية برغم العذاب يا روعة السفر» (ص ٢٦٢).

ويرتبط الظلام بالسجن حتى يصبح السجن صورة من صور الليل المظلم. ولما كانت القدس تحت سطوة الإسرائيليين فإن الكاتب يكثف من حضور السجن ويقرنه دائما بالليل والظلام، إذ يمتد أثره إلى الشخصيات فيشوه حضورهم، بل يصبحون خلقا آخر تملؤه الحيرة والقلق والاضطراب: «السجن، الليل، الحرمان، المستقبل الغامض كلها تصنع عالما غريبا منطويا بذاته يولد في حناياه أجنة مشوهة» (ص ٥٨)، بل إن القدس كلها تتحول إلى سجن يخيم فيه الظلام، ولا بادرة لفجر يبده ويكشف عن صبح جديد يملأ الدنيا بنوره.

وتنتهي الرواية وكل الشخصيات في السجن بعد اختفاء الخليفة دلالة على استمرار الظلام والسجن الذي صنعه الإسرائيليون.

وكما سبقها من الروايتين قاتل حمزة وعمالقة الشمال، فإن الشخصيات تعيش تحت ستار الليل، وكل واحدة منها تتعامل معه انطلاقا من وعيها به. فعمر بن الخطاب يشع النور من وجهه. إنه قبس من نور جاء ليضيء بكلماته العالم المظلم: «لا يا صديقي لقد جاء عمر لا لنحميه، جاء كصفارة الأمان التي تهيب بالناس أن يخرجوا من ظلمات الخنادق والكهوف إلى الحياة والنور» (ص ١٣٨).

أما البطل فيعي جيدا الليل الذي يعيشه من البداية، فالليل ليس مجرد زمن يتعاقب والنهار، إنه ليل عديدة ظلماته، فهو الاستيطان الإسرائيلي، وهو الهزيمة التي يعيشها المسلمون، وهو اليأس الذي يقتل أحيانا بداخله الأمل، لذلك فهو يدافع هذا الليل الطويل بحثا عن النور، ورغم ظلمات السجن فإن قلبه يشع بنور الإيمان.

هناك شخصية الطبيب عبد الوهاب هذا الرجل المؤمن يشبه الشيخ عبد الله في عمالقة الشمال يعرف طريقه جيدا رغم كثافة الظلام لا يضل السبيل، يواصل السفر لأنه كما يقول: «المؤمن يرى بنور الله» (ص ١٣٨).

إلى أن يستشهد على يد اليهودي دايفد وعصابته. أما الشخصيات: راشيل، والطبيب وهيب الله، والحكيمة رجاء، فالظلام الذي يعيشونه من نوع مختلف، عكس الإيمان واليقين.

«النور في رواية قاتل حمزة»

في قاتل حمزة يسيطر الظلام، ومن ثم يصير النور الأمل الذي يحلم به وحشي ويسعى إليه بكل الطرق، ولو بقتل حمزة عم الرسول ﷺ، يعده سيده بالحرية إذا قتل حمزة، فيفعل ليكون النور رمز الحرية التي يبحث عنها، يطلبها بحريته لكنه في اللحظة التي يرى فيها النور يجد نفسه وسط الظلام من جديد، إنه نور مزيف، بل حرية مقيدة، إنها ألعن من العبودية إذ صيرته لا عبدا مملوكا ولا سيذا حرا، أصبح خلقا مشوها يزداد ظلامه كثافة ويبعد عنه النور، بل يتحول إلى طرف آخر للظلام يصارع النور المتجلي في قلب عبلة فتاته القديمة التي تركته بعد إسلامها، فينطفئ النور الوحيد في حياته ويتحول الوجود كله إلى ظلام، يتعجب وحشي كيف؟! «يتفتح قلب امرأة مملوكة على النور وتغشى عنه عيناها وعينا سيدها» (ص ٦٠).

إن النور في قاتل حمزة يتعدى كونه إشارة زمنية للنهار ليصير رمزا للإيمان، ومن ثم يبدأ التدافع بينه وبين الظلام الذي هو رمز الضلال. هكذا نجد وحشيا في خضم هذا التدافع يقاوم الظلام بالظلام، فلا يجني غير الظلام، لأنه يبحث عن النور وهو يجهل حقيقته وتغشى عيناه فيضل الطريق إليه رغم أن «ضوء الشمس قوي باهر فيحاول فتح عينيه جاهدا ليوافق النور» (ص ٧٥) ولا يستطيع، إنه هارب منه إليه، يلاحقه متمثلا في طيف حمزة المشرق الوجه، الباسم الثغر، تستمر الملاحقة ليلا ونهارا حتى نهاية الرواية.

تخرج مكة كلها من ظلماتها لتدخل في نور المدينة حتى وصال البغي يعرف الإيمان طريقه إلى قلبها، بينما يواصل وحشي هروبه داخل أنفاق نفسه المظلمة، يرى النور ويعمى عنه، يهرب إلى الطائف لكن النور دوما خلفه، الصورة المشرقة تتحدى الظلام وتلاحقه حيثما حل ونزل.



فراشيل يلتقي بها عمر بن الخطاب وهي في حال سكر وفجور تتعلق به مثلما تعلقت جاماكا بعثمان الداعية، وتسعى وراءه في رحلتها لكشف حقيقته، تخرج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، تعلن إسلامها، وتعمل على نشره حتى تغتال بيد بني جلدتها.

الدكتور وهيب الله يعيش في ظلام الأفكار التقدمية الزائفة، يسير ضد فطرته إلى أن يغيب مدة خمسة عشر يوما ليعود والاضطراب يملأ عقله وقلبه، يلتقي الخليفة، يبته همومه، ويقص عليه رحلته مع الأفكار والتدافع الذي عاشه بين الحق والباطل، بين الظلام والنور، وبكلمات بسيطة يشع النور في قلبه، ويعرف الاطمئنان والسكينة، يتعلق قلبه بعمر بعد أن كان ينعته بخرافة القرن العشرين.

أما الحكمة رجاء فهي بسيطة التفكير والإيمان تعيش زمنها مثل آلاف النساء، لا تعرف حقيقة المرأة، لا تكلف نفسها عناء البحث عن ذلك، ولا تدرك الليل الذي يحيطها إلى أن ترى الخليفة، وتسمع كلماته، ثم تضع نفسها أمام مرآة تلك الكلمات، فتري الفرق الشاسع، وتدرك أنها وسط ظلام حالك السواد، تعقد العزم على الخروج إلى نور الحقيقة، وتحمل الرسالة لتبلغها بنات جنسها، ثم تكافح من أجل قضية وطنها فلسطين، إنها «وجدت نفسها تخوض تغييرا كبيرا في نظرتها للأشياء، وفي ملابسها ومأكلاتها ونومها ويقظتها وعلاقتها بزميلاتها وزملائها وأحوالها الأسرية، ثم الشيء الهام: واجبتها في نشر ما تؤمن به من أفكار ومبادئ خاصة بين بنات جنسها» (ص ٢٣٩).

إن الليل في عمر يظهر في القدس يتخذ عدة أبعاد، فهو الاستعمار والرديلة والأفكار واليأس والسجن والظلام، ومثلما اتخذ الخطاب الليل إطارا له دلالات مختلفة، وإن كانت إشارة النور هي الغالبة، يأتي كطرف لا ليتعامل مع الليل بل ليتدافع وإياه على احتلال أكبر مساحة من الرواية وملء الزمن في المستوى الدلالي.



وعلى رأسهم الأب توم، لكن الغلبة تكون في الأخير للنور حينما تعلن القرية إسلامها.

إن عمالقة الشمال صورة حية لثنائية الظلام والنور خاصة في مستوى التدافع، إذ يتخذ عدة أشكال: بين الإسلام والمسيحية، الوطن والاستعمار، الوحدة والانفصال، يكون النور مرة أخرى صورة للوطن الذي يعاني ظلام الاستغلال الاستعماري، يحاول الانتشار لكن المستغلين يحولون دون ذلك، يُغتال أحمد بللو، ويستولي المستغلون على الوطن فيعم ظلام الظلم ويغيب نور الحق، لكن سرعان ما يعود النور ويزول الظلام على يد الثوار الذين يعملون من أجل وحدة نيجيريا، يحدد هذا التصور الحاكم الجديد جون: «أردت أن أقول: إنني ما جئت إلا لجمع شمل نيجيريا كلها وعليكم أنتم أن تضيئوا الطريق كل حسب أسلوبه لتصل الأمة إلى آمالها المرتقبة» (ص ١٤٢). إن النور هنا هو الدعوة إلى توحيد الشعب النيجيري والمحافظة على آماله التي يحلم بها.

ثم إن النور يشتعل في مستوى دلالي آخر هو اليقين وقوة الإيمان التي يفقدها عثمان عندما يحيط به الظلام، فيلجأ إلى شيخه عبد الله الذي يصوره الخطاب كالشعاع المشتعل لا ينطفئ أبداً، يتزود عثمان من هذا النبع الإلهي كلما حط اليأس على قلبه حتى تصفو نفسه، و تتحقق وحدة نيجيريا فيرى السماء: «صافية يغمرها الضياء» (ص ١٨٢).

وفي كل ذلك نجد النور مقترنا بالولادة والبداية الجديدة، يعتمد الكاتب في نهاية الرواية إلى توظيف كلمة الفجر التي تحمل معها العودة المملوءة بالأحلام الشجية: «وسأعود إليك يا حبيبتي مع الفجر الندي الساحر المرطب بالحب والأحلام والذكريات الشجية» (ص ١٧٨) ويكون الفجر مخلصاً لكل آمال وأحلام البطل عثمان، إنه النور الذي يريده أن ييسط جناحيه على كامل نيجيريا و: «أن تضئ شعلة الإيمان قلب الأم الكبير، أن تهتف نيجيريا لله وحده، هذا هو السلام الحقيقي، والنصر الكامل الذي

إن وحشي يعمل بنفسه على إطالة ليله المظلم فلا يرى للفجر بشائر» (ص ١٥٥) إلى أن تشرق عليه الشمس وهو ذاهب إلى المدينة يعلن إسلامه فيعرف قلبه نور الإيمان.

إن النور في قاتل حمزة يحمل دلالة الإيمان في جميع مستوياته خاصة على مستوى الشخصيات بدءاً من وحشي إلى فتاته عبله: «إنه النور انبثق في خاطري فجأة» (ص ٥٦)، ومرورا بوصال وخالد بن الوليد يتبعه أبو سفيان ثم مكة كلها، وأخيراً شبه الجزيرة العربية بأجمعها، لكن هذا لا يعني نهاية الظلام إنه: «لا يزال يرعد على التخوم» (ص ٢٦٧) لذلك يقول سهيل صاحب وحشي: «نظل دائمي الترحال نحمل الحقيقة وننشر النور» (ص ٢٦٧) ليستمر التدافع بين الظلام والنور.



«النور في رواية عمالقة الشمال»

إن لفظة النور ليست في عمالقة الشمال بالكثافة التي وردت بها في قاتل حمزة لكن الألفاظ الموظفة كالنور والفجر والضياء تمنح لها ظلالاً تغطي مساحة واسعة من الرواية وتجعلها طرفاً نقيضاً للظلام، وإن كان هذا الأخير قد اتخذ دلالة هي الظلم في أغلب الأحيان، فإن النور جاء كرمز للعدالة والحق الذي غيب في نيجيريا، ولم يعد له حضور في الخطاب، إلا كحلم يطمح إليه البطل ومن سار في نهجه لذلك فهو يدافع الظلام وأصحابه منذ البداية عندما يكشف عن هويته: «أنا أحد الدعاة إلى الله، والطريق إلى الله محفوف بالأشواك والأخطار في أيامنا تلك كل ما يجري على أرضنا يجعل الأمر مهمة صعبة» (ص ٦) يكون النور هو الإيمان الذي يعمل عثمان كداعية على نشره وإدخال قبائل الجنوب والشرق فيه بعد إخراجهم من ظلمات الوثنية، ويتجلى ذلك واضحاً في إسلام جاماكا التي أصبحت سعيدة: «امرأة فتحت قلبها لنور الله» (ص ١٠٥). إن فعل الدعوة الذي يمارسه عثمان يشكل بؤرة التدافع بين النور المتمثل في الإسلام والظلام المتمثل في المسيحية المزيفة المزعومة من طرف المبشرين

علمنيه محمد ﷺ، الإيمان والحرية
والخلاص والسعادة» (ص ١٨٢).

«النور في رواية عمر يظهر في القدس»

يتخذ النور في عمر يظهر في
القدس من البداية مساره ضدًا
للظلام عندما يصف البطل حال
العالم التي يعيشها، ثم يحلم بفجر
يبدد الظلام، ويرجل عملاق يحمل
بين كفيه النور، يزرعه في قلوب

الناس، يوظف النور رمزاً للإيمان الذي افتقده الناس
عامة والمسلمون خاصة في الزمن الحاضر، ويسير حتى
النهاية في خط معاكس لخط الظلام، في قلب هذا
التدافع يظهر عمر بن الخطاب شعلة من شعلات النور،
ويعلن عن مهمته: «جئت من وراء السنين لأرى وأقول:
ليس لي رصيد سوى الكلمة» (ص ١٢) إنه العملاق الذي
حلم به هذا البطل، يعاين الظلام، يصف حال المسلمين
ويضع يده على الداء الحقيقي، ينتقل إلى المستشفى
حيث يعالج المرضى فيسعى إليه كل من يبحث عن نور
الحقيقة، وأولهم راشيل الاسرائيلية: «أنا أبحث عن النور
» (ص ٨٧) وبعد حوارات عديدة يدخل النور قلبها، وكذا
الأمر بالنسبة لرجاء ولوهيب الله. وفي نفس الوقت
يواجه النور رمز الإيمان الإسرائيليين كصورة للظلام
المنتشر في هذه الرقعة والعالم كله، يتحداهم عمر بن
الخطاب ويبين لهم أن النور باق رغم محاولتهم إطفاءه
قراءة أربعة عشر قرناً، ثم يقيم موازنة بين النور النابع
من قلب المؤمن وما يفعله حين يعم العالم وبين ظلامهم
الذي أدخلوا العالم فيه: «حطمت الأسوار والسجون التي
يرزح خلفها البشر التعساء، وفتحت الأبواب ليتدفق
النور ويبدد الظلام» (ص ١٩٩). ويشد التدافع بين النور
والظلام في أكثر من مشهد بين عمر وخصومه تارة، وبين
أتباعه والإسرائيليين تارة أخرى، وقبل أن يختفي الخليفة
يبين لأصحابه حقيقة النور التي ليست سمة خاصة بزمان
دون آخر بل هي نور قد يشع في أي زمان ومكان: «حيث

■ عمالقة الشمال هورة حية لثنائية الظلام والنور خاصة في مستوى التدافع، إذ يتخذ عدة أشكال: بين الإسلام والمسيحية، الوطن والاستعمار، الوحدة والانفصال.

توجد المبادئ متمثلة في رجال مؤمنين لا يخافون إلا الله
وحده، يوجد النصر وتشرق شمس العدالة والكرامة،
ويسعد الناس ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» (ص ٢٥١)
ويختفي عمر كما ظهر، ويبقى النور يشع في القلوب.
إنه شعاع من نور النبوة، وهل تستطيع إسرائيل أن تقتل
الشعاع؟ مستحيل! إنه في كل مكان فهو ليس مجرد جسد
يعيش في إطار زمني ومكاني محدود، بل فكرة وعقيدة،
إنه إيمان ولو أرادت إسرائيل أن تقبض عليه، فلا بد أن
تقبض على كل رجل ذي قلب مؤمن، ويتحول النور موسماً
للولادة ينتظره المؤمنون ليأتيهم بفجر رائع يخلصهم من
وطأة الظلام. وهكذا يستمر السفر وشعاع النور يضيء
في كل مرة قلباً مظلماً.

ونحن نتتبع ثنائية الظلام والنور في الروايات الثلاث
لا حظنا أن نجيب الكيلاني لم يوظفها انطلاقاً من تصور
خاص للنور والظلام والعلاقة بينهما بل استقى هذا
التصور من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ (البقرة) بناء على هذه الآية
أسس تصوره للثنائية ثم وظيفها كما وردت، واستطاع من
خلالها أن يفهم التدافع الحاصل بين النور والظلام منذ
القديم حتى زمننا الحاضر، ومن ثم أراد توظيف هذين
الطرفين فاختر من الواقع ما يخدم رواياته أحداثاً تتواءم
وهذه الثنائية، ثم نسج في إطارها خطابه الروائي. وكان
دوماً ينتصر للنور كرمز يجب تحقيقه وفق تصوره حيث
يوظف الفجر كحلم ينتظره أبطاله أو يعيشون في رحابه
حتى وإن لم يتحقق في واقعهم الفعلي ■